عمر في بيت المقدس

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

هذا عام ستة عشر من الهجرة ، وقد انساحت جيوش المسلمين في الشام والعراق وفارس وألقت أقاليم الشام بالمقاليد إلا فلسطين . وأبو عبيدة ابن الجرّاح يحصر بيت المقـــدس ، وقد ملأ الأسماعَ والقلوب بأس المسلمين وعدلهم ووفاؤهم

عزم أهل البيت المقدس أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس — في عهد المسلمين وحمايتهم وعدلهم ، ورغبوا أن يكون صاحب عقدهم عمر ... عمر الذي ملأت سيرته الآفاق وسكنت إلى عهده النفوس ، واشتاقت إلى رؤيته العيون

وفصل عمر عن المدينة في جمع من الصحابة ومعه مولاه أسلم.

خرج يغذّ السير إلى الشام ليتفقد أحوال المسلمين ، ويصالح أهل فلسطين ...

ويمضي في طريقه حتى يبلغ أيلة . ويتنظّر الناس موكب أمير المؤمنين يحسبون أنه سيطلع عليهم في زينته يحيط به جنده ورجاله . والذي رأى منهم هرقل حين فتح بيت المقـدس قبل عشر سنين ، أو شهده من بعدُ في حلّ أو ترحال ، تخيّل عمر قادماً في موكب كموكب هرقل أو في موكب دونه ولكنه موكب ملك أو أمير

ولما دنا عمر من أيلة تنحى عن الطريق وتبعه غلامه فنزل فمشى قليلاً « ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فَرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه » . وكأن عمر خاف أن يداخله الزهو وهو على مركبه في غير زينة فآثر أن يشعر نفسه أنه وخادمه سواء فتحول إلى رحل غلامه . فلما تلقّاه أوائل الناس قالوا : « أين أمير المؤمنين ؟ قال : أمامكم (يعني نفسه) . وذهبوا إلى أمامهم فجازوه حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها . وقيل للمتلقين : قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها . فرجعوا إليه »[1]

ونظر الناس إلى رجل طويل جسيم أصلع أشقر شديد الحمرة كثير السبلة[2] في أطرافها صهوبة وفي عارضيه خفة — رجل لا تقع العين منه إلا على الوقار والتواضع والشدة في الحق والرأفة بالضعفاء . رأوا ملكاً في زي ناسك ، وراعي أمة في صورة راعي ثلة . رأوا إنسانا لا تفقد فيه الإنسانية حقيقة من حقائقها ، ولا يصيب فيه الجبروت باطلاً من أباطيله .

اجتمع الأساقفة والرهبان يرون رجلاً في يده الدنيا ولكنها ليست في قلبه ، يملكها ولا تملكه ، ويصرّفها ولا تصرّفه ، ويستعبدها ولا تستعبده . وليس شيئاً أن تكون زاهداً في صومعة ولكن العظمة كلها أن تكون زاهداً والدنيا تحت قدميك .

« ودفع عمر قميصاً له كرابيسَ قد انجابَ مؤخّرُه عن قعدته من طول السير ، إلى الأسقُف وقال : اغسل هذا ورقعه . فانطلق الأسقف بالقميص ورقعه ، وخاط له آخر مثله فراح به إلى عمر ؛ فقال : ما هذا ؟ قال الأسقف : أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته ؛ وأما هذا فكسوة لك مني . فنظر إليه عمر ومسحه

---

(١) الطبري حوادث سنة ١٧ (٢) طرف الشارب

الغربيين ، لا أن يعلموا هم حقيقتنا ، وينفذوا إلى الصحيح من أخبارنا ومقاصدنا ، وإن كان علمهم بهذا نافعاً لنا كما تيسرت وسائله في أيدينا .

والذي يبدو لنا من العلم بحقيقة القوم أن العالم الإسلامي خليق أن يعامل كل من يعامله منهم على سنة الإنصاف والمنفعة المأمونة العواقب ، وكل ما ينبغي أن يحذره هو الإصغاء إلى دعاة الشيوعية والإصغاء إلى دعاة الفاشية ، وأن يكون ذنبا في أعقاب الديمقراطية ، فإذا استطاع أن يمشي مع الأمم الديمقراطية الحرة في الطليعة فلا عليه بعد ذلك أن يعامل من يشاء على سنة الإنصاف والنظر البعيد إلى عواقب الأمور .

عباس محمود العقاد

ثم لبس قميصه وردّ عليه ذلك القميص . وقال : هذا أنشفهما للعرق[1] » .

— ٢ —

وسار عمر حتى نزل الجابية فى وسط الشام التى غلب عليها هرقل ، ولكنه دخل الجابية كما دخل أيلة . قدم « على جمل أورق تصطفق رجلاه بين شعبتى رحله بلا ركاب . وطاؤه كساء أنجانى ذو صوف ، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل . حقيبة ممزقة أو شملة محشوّة ليفا هى حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، عليه قميص من كرابيس . الخ[2] »

وجاءه رجل من اليهود ، وكان اليهود يرقبون رَوح الله بأيدى العرب ، ويدعون الله أن يفرج كربهم ويذهب عنهم جبروت الروم بأيدى المسلمين . قال اليهودى : السلام عليك يا فاروق ، أنت صاحب إيلياء ، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء

وأقبل وفد بيت المقدس إلى الجابية فصالحوا ، وكُتب لهم عهد شهد فيه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية بن أبى سفيان . وأعطوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وألا يُكره أحد على الدين أو يضارّ فى شىء

وأزمع أمير المؤمنين المسير إلى بيت المقدس فإذا فرسُه يتوجّى[3] فأتى ببرذون فركبه ومشى البرذون مِشيته فأسرع وهزّ راكبه فرأى عمر فيها خيلاء فنزل وضرب وجهه وقال : لا علّم الله من علّمك ، هذا من الخيلاء

— ٣ —

دخل عمر بيت المقدس لا مدّمراً مخرّباً كما دخلها بختنصر ، ولا مضطهداً أهلها كما دخلها الرومان من قبل ، ولا مزهوّاً بفتحه كما دخلها هرقل قبل عشر سنين بعد أن غلبَ الفرسَ على الشام ، ولكنه دخل رافعاً لواء التوحيد والعدل والأخوّة العامة والمرحمة الشاملة . دخل المدينة فسار إلى المسجد ليلاً ومضى إلى محراب داود فصلّى فيه . وطلع الفجر بعد قليل ودوّى الأذان فى أرجاء المدينة المقدّسة لأول مرة — صيحة الحق فى أعقاب الباطل المهزوم ترفعها تباشير الصبح فى أخريات الظلام . وشهد الله لقد كانت فاتحة الخير والسلم والكرامة لبيت المقدس ومن فيه .

(١) كان قميص عمر من الكرابيس أى القطن وكان الأسقف قدم إليه قميصا ناعما وفى بعض الروايات أنه من كتان فلم يرضه عمر

(٢) تاريخ عمر لابن الجوزى

(٣) الوجى : العرج من الحفا

وقرأ عمر فى الركعة الأولى سورة (ص) وسجد حين قرأ آية السجدة : « وظن داود أنما فتنّاه فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب » . ثم قرأ فى الركعة الثانية أول سورة الإسراء — سورة بنى إسرائيل وفيه وصف ما أصابهم على يد البابليين

ثم تقدم إلى الكناسة — الكناسة التى تراكمت على البيت حين أُخرب وهجر والتى عجز اليهود أنفسهم عن إزالتها حين ملكوا أمر البيت — تقدم إلى الذلة المكدّسة على الحرم — تقدم عمر ليزيلها عن البيت كما أزال عن أهله الظلم والقسوة . تقدم أمير المؤمنين وجثا وقال : « أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا فى فرج من فروج قبائه » ، وإنما فعل عمر ما فعل تكريماً للبيت وتطهيراً وإيذاناً بهذا العهد عهد الطهارة والكرامة

وكبر كعب الأحبار وكبر الناس معه . قال عمر : ما هذا ؟ قال : كبّر كعب وكبّر الناس . قال : علىّ به . فقال كعب : « يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ بما صنعت اليوم نبىّ منذ خمسمائة سنة . فقال : وكيف ؟ فقال : إن الروم أغاروا على بنى إسرائيل فأديلوا عليهم فدفنوه ؛ ثم أديلوا فلم يفرغوا له[1] حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بنى إسرائيل ؛ ثم أديلت الروم عليهم إلى أن وليت[2] ، فبعث الله نبياً على الكناسة فقال : أبشرى أورى شلم ! عليك الفاروق ينقّيك مما فيك . أتاك الفاروق فى جندى المطيع ، ويدركون لأهلك بثأرك فى الروم[3] »

لقد لبث اليهود خمسمائة سنة ينتظرون أن تطلع شمس الإسلام ، ويأتى الفاروق ليحثو التراب فى قبائه ويأمر الناس بتطهير البيت المقدس

وما فقدوا رعاية الإسلام من بعدها ، إلا تسعين عاماً غلب فيها أهل الصليب فأصاب البيت المقدس ما أصابه حتى استرجعه رجل من رجال المسلمين ، ملك يتشبه بعمر بن الخطاب فى الإشادة بعدل الإسلام ومرحمة الإسلام . رحم الله صلاح الدين يوسف ابن أيوب

ولكن بنى إسرائيل حين رأوا الزمان ينيخ على المسلمين بكلكله لم يألوا عوناً للعرب والمسلمين ، ولم يذكروا فضل الإسلام ولا حفظوا يد عمر ، ولا اعترفوا برعاية المسلمين وحمايتهم ثلاثة

(١) غلب الفرس على آسيا الصغرى والشام ومصر أيام كسرى برويز إلى أن استردها هرقل ؛ وهى الحوادث التى أشير إليها فى سورة الروم

(٢) الطبرى حوادث سنة ١٥

(٣) يعنى رجعت الدولة لليهود فلم يفرغوا لازالة الكناسة عن حرمهم